

# الاستاذ والمُتوحّش

كلود روا

منذ العبارة الاولى التي أطلقها مجهول عام ١٩٣٠ «الحقيقة لا تولد أولاً»، لم يكفّ الناس عن ان يسمعوها من لدن سارتر جلبة من «التلاكم» الداخلي، وأصداء صمّاء لمشادة لا تنتهي، وهزيم عاصفة في جمجمة، ومصارعة فكرٍ قويّ مع ذات نفسه.

إن سارتر الناثر صاحب فكرة «ان عليه، فيما هو يعرض احاسيسه، ان يضيئها ويوضحها» يأخذ بخناق سارتر الشاعر الذي يرتكب، كجميع الشعراء، ذنب «إسالة عواطفه في قصيدته» والذي يخلط كل شيء بالكلمات بدلاً من إضاءة كل شيء بالمعاني.

إن الوجودي (الذي يفاخر بأنه انسانيّ) يضرب بشدة على رأس ذلك «الانسانوي» الكبير الذي ينهك برفع ياقته نحو «القيم الخالدة». إن الأخلاقي الذي يرى أنك «حين تسمّي سلوك فرد، فانك تكشفه له، وبالتالي تغيره، ينتقد انتقاداً لاذعاً عالم النفس ذاك المتهم دائماً بأنه يبحث عن «انسان خالد» فيجد الطبيعة الانسانية، وينسى أن «الكلام يعني العمل»، العمل من أجل التغيير. إن الميتافيزيقي المأسوي والفيلسوف الرصين ينتقدان روح الجدّية. ان المعقلن العنيد ينفذ سهامه بذلك الذي يعتقد بأن العقل لا يعطي الحق لشيء. ان «المحرّك» الذي لا يتعب ولا يكَلّ، رئيس الفريق، يحاول ان يُحمّد ذلك الذي يعلن: «كل مشروع هو، في نظر من يفكر، «خُلف وعبت». ان المتوحّد الذي يبهره «الحزب» يحاول ان يُخرس المتمرّد المتوحّش الذي يبصق في وجه المسوخ الباردة.

لم يسيء أحدٌ لسارتر بقدر ما أساء هو نفسه، حتى آخر حديث له. إن المرء ليتسمّ تجاه لهجة المحقق الصغير التي حاول «بيني ليفي» ان يضع بها سارتر على السفود: ولكن قوة سارتر الاولى هي انه لم يوجّه قط الى نفسه حديثاً مؤدّباً. حين نشر «الكلمات: سيرتي الذاتية»، حكاية الولد «بويو» الذي أصبح سارتر الرجل، تتم رمون كينو «انه كتاب جميل، ولكنني أجد سارتر شديد القسوة مع بويو». ذلك ان سارتر كان دائماً قاسياً مع سارتر، حتى حين كان يعتمد احياناً الى ايداء نفسه باعطائها حق ان يخطيء، لأن الحقيقة لا تولد أولاً، بل هي تُصنّع وتُصير.

إن «ربّاع» الافكار، عداء مباراة الديالكتيك للمسافات البعيدة، مسافات «الشيوعيين والسلام» التي تقطع «الأنفاس» مسافات «نقد العقل الجدلي» او «فلوير» (اكبر طوفان نقدي في التاريخ الأدبي)، إن سارتر الذي لا يتعب والذي لعب طوال نصف قرنٍ محشو بالايديولوجيات كما يحشى مدفع بالبارود، دور الخطيب العالمي،

وفرنسا في حرب الجزائر ١٩٥٦؟ وعلم الطب النفسي القامع ١٩٦٤؟ ورفضه لجائزة نوبل في العام نفسه؟ والجرائم الاميركية في الفيتنام ١٩٦٦؟ وتشبيه قسم كبير من اليسار الفرنسي للدول العربية بأنها دول تقدمية؟ أترأه أخطأ عام ١٩٦٨ (ثورة الطلاب)؟ وهل أخطأ عام ١٩٦٠ بأن يدير جريدة «قضية الشعب»، اياً كانت خلافاته في وجهة النظر مع هذه الجريدة؟ وحين دافع عام ١٩٧١ عن «باديلا» ضد كاسترو؟ وحين تدخّل عام ١٩٧٢ لصالح المعتقلين في فرنسا؟ اننا نستطيع، ويجب ان نتابع حتى ١٩٨٠، الى ان نبليغ الوفد الذي ترأسه سارتر (وكان قليل العدد جداً) الى السفارة السوفياتية بعد اغتيال ثلاثة من الأرمن...

لقد أصبح سارتر، في اعتقادي، المطلب اليومي للنظر الى الأمور مواجهة ولاتحمامها - اذا اتاحت الفرصة استجلاءها - مهما كانت الصعوبات او العواقب.

وها نحن نسمع اليوم «شباناً» يقولون ما نتوقّع منهم قوله: أن سارتر، في نظرهم، ليست له الأهمية نفسها التي كانت بالنسبة لجيل ١٩٥٠. وهكذا ترتدّ الصناعة الثقافية بسارتر الى الأثرية. لكن جديين: فبالنسبة لجيل كجيلي الذي كان يتعلّم منه أن يخرق القانون، سيكون هناك دائماً «طابع» سارتر على هذه الأفكار وهذه الأعمال. اما بالنسبة للأجيال التالية، فقد زال الطابع، ولكن ما أهمية ذلك؟! إن المحتوى يبقى، ويحيا، وينمو.

لماذا؟ لأن فلسفة سارتر، في رأيي، هي في فرنسا هذا العصر، «فلسفة الذات الفلسفة الوحيدة التي تبحث في وجه الريح والمدّ عن مكان «الذاتية» في الواقع. لقد رفض سارتر نهائياً مقولة «الذات البورجوازية»، الـ «هاملت» الاستيهامي الذي همّه ان يثبت فقط ان لا مكان للفرد في عالم اليوم. ومع ذلك، فان سارتر لا تسحره الأصوات التي فيها هي ترفض كذلك، ويحق، النزعة الانسانية التقليدية، تتخلص في الوقت نفسه من الماء القذر، ولا تتكلم بعد الا بعبارات القوانين والأشياء والبني. إن سارتر يواصل بحثه عن وضع الانسان، وضع البشر. وليس الخطأ خطأه اذا كان الانسان المعاصر مزدوجاً، انساناً وابن آوى. ويرتبط بذلك ايضاً ان سارتر، بسبب من هذه الازدواجية نفسها، وبسبب من الحرية، ومن الأمر العارض، التقى «القلق». ولكنه المنظّر الوحيد الذي قدّم عن القلق خطاباً غير سيكولوجي، كما يقال، خطاباً غير مقلّص.

عن القلق، ولكن ليس عن اليأس. فليس عنده يأس، لأنه يمنح نفسه، ولأنه منحنا الوسائل لنحمي انفسنا من اليأس، بأن نبحث عن الحقائق فيها وراء جدار الضمير الطيب. لقد كتب سارتر عام ١٩٥٢: «انني اكن للبورجوازية حقداً لن ينتهي الا بانتهائي». ولكن هذا الحق للبرنامج البورجوازي (مهما كان لون البورجوازية، حتى ولو كان أحمراً) ينتقل من جيل الى جيل، ولن ينتهي الا بانتهاء هذا النظام. لقد وضع سارتر قدميه في الوعاء. أف! بعد ذلك، لا يمكننا أن نأكل منه: ترجمة «الأداب»

متسائلاً عن كل شيء ومجيباً أحياناً عن بعض أسئلته، ربما أنسى الناس سارتر الأول، ذلك الذي انفجر مع «الغثيان» والذي ظل هيجاناً بركانه متواصلًا حتى النهاية. لقد حاول طوال حياته أن يتخذ احتياطاته مع هذا الغاضب الرائع، وأن يصيح بأن افكاره أهم من أحاسيسه، وأن التزاماته هي قضايا عقلية، وعواطفه حكاية خاصة، ولكننا ما نكاد نعيد فتح أعمال سارتر الكاتب، حتى ينفجر في وجوهنا الرماد ومقدوفات البركان و«الشطط» والجنون العظيم.

لم يكن سارتر يريد، بصفته رجل فعل، أن يكون كاتباً، ولا فناناً. إن تلك ميزة عصر كان المقياس الذي لا يخطف فيه أن الذين صنعوا ادباً جيداً هم الذين احتقروا الأدب، وأن الشعراء الحقيقيين قد مارسوا، بعد قصيدة مشهورة لايولار، «نقد الشعر» وعاشوا، مع «باتاي»، «كراهية الشعر» وأن الفنانين قد علموا، بصورة عامة، «موت الفن».

لم يوجه سارتر في «ما هو الأدب؟» سخريات سوداء بما فيه الكفاية للمبخرين وضافري الشرائط التبجيلية، أولئك الذين يبعدون عن الرجال العظام الغائبين «افكارهم» المزعجة جداً والمربكة جداً والتي تجوزت تماماً، تلك الافكار التي فسدت في الهواء عبر القرون، لكي لا يُيقوا «خلف اسباب العقل التي تنهاوى» الا «أسباب القلب»، أي العواطف والتلهفات. ومع ذلك، فإن سارتر لم ينتظر أن يصبح تمثالاً لكي يقوم هو نفسه بترتيب افكاره، وأحياناً بنقلها. إنه لم يكف لحظة عن أن يضعها موضع التحدي، والاهتمام وأن يطرحها للنقاش، وأن ينبذها حين يرى ذلك ضرورياً. ولكن حتى ولو كان سارتر يكره الخلود وشمولية المومياوات وأبدية «العواطف»، فإن ما يظل يغلي تحت رشاقة الجدليات وشبكة الاسباب التي بسطها سارتر، هو كل ما كان ينجل منه أو يحتقره: أن يكون يكون «رائياً» أو مجنوناً أو طفلاً أو شاعراً.

إن سخرية سارتر وذعره ودواره وغضبه هي كلها من صفات «الرائي». والعميان وحاسرو النظر يُسمون «رائين» أولئك الذين يرون ما يرفضون رؤيته. وذلك النثر الذي يريد أن يكون جافاً، فيصبح دبقاً كاللقاح، كالمني، كالموت، إنما هو نثر رجل يحاذر الشعر محاذته للطاعون، وهو مع ذلك قد كتب بالنثر قصيدة متوحشة. إن بإمكانه أن يبني لـ «مسجون التونا» بيتاً من حجارة مقصوبة، بيتاً صلباً لا ينقصه مفتاح باب، ولا «ساعة المانية ضخمة تدق ثلاث دقات» عند رفع الستارة. ولكن لا حاجة بسارتر لأكثر من حركة حتى يدمر قاعته البورجوازية، ويُطلق من جديد «ذبابه» و«عقاربه»، وحشوده الليلية، وينصب على المسرح الذي يصبح مرة أخرى «غرفة» «جلسة سرية» - ينصب شخصية «فرانتز» والمونولوج الذي لا يُنسى لهذا الجنون الذي ينطق بالحقيقة.

ربما كان فكتور هوغو مجنوناً بحسب نفسه فكتور هوغو. ولكن سارتر هو دوماً هذا المثقف الفرنسي الذي يسعى لكي يُعتبر الاستاذ رقم واحد لجيله، والذي يتجاوزُه ابداً «وحشُه» الداخلي. وعلى شاكلة مدير

المستشفى الذي يلقي محاضرة عن وجود (أو عدم وجود) اللاوعي، والذي يرى انبثاق مرضاه الأكثر أهمية في قاعة المحاضرة، يشرح سارتر بشكل لطيف انه ينبغي على المرء الا يهتم بالدخلاء لأنهم ليسوا إلا أشخاصاً «خياليين» امثال «غوتز» أو «كاين»، أو ربما كانوا هلوسة من الهلوسات، ولكن ما هو هام حقاً، إنما هو النظرية التي كان يعرضها.

ويحاول المستمعون أن يقتنعوا بما قيل، فيتابعون تسجيل الملاحظات ويترحون على الخطيب أسئلة حكيمة، ويعرضون عليه المصاعب التي ربما كانت مواقف المتناقضة تثيرها، ولكن الشخصيات المقلقة والرائعة التي ترود القاعة، ايروسترات، فرانتز، غوتز... تمنع الجمهور من أن يكون متنبهاً بالقدر الذي يفرضه العرض الفكري العظيم. ويفقد طالب غير حكيم صبره، فيقول: «اعترف، يا سيد سارتر، أن «هم» هم انت!» عند ذلك، يطوي سارتر اوراقه، ويرتب الصفحات العشرة آلاف التي يكتبها ويقول: «ما دمتم حريصين على ذلك، فسأتحدث اليكم عن نفسي». ويبدأ: «لست قائداً، ولا أطمح الى أن اكونه، لا يتأكلني دُمُ السلطة: فانا لم أتعلم الطاعة». ويجلس المغيرون المقلقون، فيستمعون الى سارتر حتى النهاية، حتى آخر «كلماته»: «إذا وضعت «الخلاص» المستحيل في مخزن قطع الغيار، فماذا يبقى؟ يبقى انسان مصنوع من كل الناس وهم جميعاً يساؤونه وهو يساوي ايا كان» وحين ينتهي سارتر، يرين على القاعة صمت عميق: صمت حياة.

لما كان سارتر قد فعل كل شيء، طويلاً وعرضاً، فقد كتب على الأرجح من الحماقات والتفاهات بقدر ما كتب من صفحات رائعة، وقد خلف من الاوراق الجافة الميتة مثل ما خلف من اشجار وغصون مرصودة للينوعة والاختضار وقتاً طويلاً. ولكن هذا الفيض من المسودات ومن المبيضات، من الدونية ومن العظمة، إنما هو ثمرة الفضيلة الاولى لرجل كانت الكتابة والقراءة - والحياة - بالنسبة اليه «تمرين كرم وسخاء». وليس من قبيل الصدفة أن كلمة «كرم»، حين كان يريد أن يشرح كيف يقضي وقته في حياته، ذلك الوقت الذي كرسه للكتابة دون ما هوادة، تتردد عشرات المرات على قلمه: «القراءة ميثاق كرم بين المؤلف والقاري». ان تكتب، يعني ان تكشف العالم وان تعرضه في الوقت نفسه كرسالة، كمهمة على كرم القاريء وارجيته [...]. إن الحب السخي هو قَسَم على الصمود، والغضب السخي قَسَم على التغيير».

حين نظر الى جنون مجانين سارتر، و«جنونه» هو نفسه، نلاحظ انها إنما هي اولا حكمة الكرم المجنونة بعض الشيء.

ترجمة «الآداب»